



أمريكا العظمى من التسامح إلى التعصب

ونظرة في شيوع الإرهاب

للدكتور حامد طاهر

المتأمل في مسيرة التاريخ الأمريكي — وهو بالمناسبة تاريخ حديث نسبيا لنا يزيد عن مائتي وخمسين عاما فقط — يجد أن هذه الدولة العظمى، التي أصبحت أقوى وأغنى دولة في العالم قد احتضنت منذ نشأتها العديد من مختلف الجنسيات: الأوروبية والإفريقية والآسيوية.

ولما شك أن هذا التعدد والتنوع إنما قام على مبدأ أخلاقي هام وهو التسامح الذي لا تنهض أي حضارة أو دولة كبرى إلا على أساسه. أمر آخر هو أن المساحة الجغرافية الشاسعة التي استوطنتها هذه الأعراق المختلفة قد ساعدت هذا المبدأ على التطبيق الفعلي، حيث أصبح لكل واحد جديد إلى أمريكا إمكانية أن يمتلك قطعة الأرض التي يقدر على زراعتها، والمنجم الذي يستخرج منه الفحم أو المعادن، والمشروع الصناعي أو التجاري الذي تتطلبه الجماهير ويوفر له الأرباح الهائلة.

ومما يذكر أن السلطات القائمة قد وضعت من القوانين واللوائح ما جعل نشاط الأضراد يتوسع ويزدهر دون أن يصطدم أو يتعرقل بأى عوائق إدارية أو روتينية كالتي كانت مستقرة في المقارة الأوروبية المعجوز! أما الأمر الثالث فيرجع إلى قدرة الأمريكان على توحيد ولاياتهم الإحدى والخمسين في كيان سياسى واقتصادى وعسكرى موحد. وبالطبع لم يحدث هذا إلا بعد أن خاضوا حروبا أهلية ومن بينها حروب الشمال والجنوب وأخيرا استقر الوضع بإعلان قيام: الولايات المتحدة الأمريكية، والتي يرمز إليها بـ:

usa

تلك هي باختصار شديد قصة النجاح الكبرى التي حققتها أمريكا في بداية نشأتها ، وكان من أهم ما يميزها هو مبدأ التسامح الذي كان يتيح لكل مواطن أن يمر ، ويدع غيره أيضا يمر .. الشاء الوحيد الذي كان يعكر الجو الأمريكي هي تلك النظرة الدونية إلى الزنوج من جانب الوافدين البيض القادمين بصفة خاصة من القارة الأوروبية . وقد استمرت هذه النظرة السيئة عشرات السنين حتى استعاد الزنوج الأمريكيان حقوقهم المسلوبة وحصلوا على المساواة التي كان من أهم تجلياتها وصول أوباما كأول رئيس لأمريكا من أصول إفريقية .

لكن الأمور ما لبثت أن تغيرت ، وخاصة حين تدخلت أمريكا لإنقاذ أوروبا من شراسة المزعيم الألماني هتلر الذي فجّر الحرب العالمية الثانية وتملكته فكرة احتلال أوروبا كلها وما يتبعها من مستعمرات خارج حدودها . وقد نقل انتصار أمريكا الساحق على ألمانيا وحليفتيها إيطاليا واليابان وضع أمريكا من دولة محلية غنية إلى أقوى دولة عالميا ولما سيما بعد استخدامها السلاح الذرى الفتاك ضد اليابان ، لكن بقيت مشكلة امتلاك الاتحاد السوفيتي لهذا السلاح ، الأمر الذي جعل أمريكا تتخوف على نفسها منه ، ولذلك راحت تمتد بينهما الصراعات وظهر ما سمي حينئذ بالحرب الباردة ، ومن خلالها راح كل طرف يضرب الآخر تحت الحزام وخاصة في الدول الصغيرة التابعة له مثل كوريا وفيتنام وأفغانستان ، ثم انتهى الحال بتفكك الاتحاد السوفيتي نتيجة عوامل ذاتية في بنيته السياسية والاقتصادية ، وهكذا خلا الجو لأمريكا لكي تنفرد وحدها بالقوة والسيطرة العالمية والمنفوذ على كل دول العالم .

في حالة أفغانستان ، التي كانت تحت الاحتلال السوفيتي ، لجأت أمريكا إلى إخراجه من هناك ، ليس بقوتها العسكرية ، وإنما باصطناع مجموعات مختارة من بعض الدول الإسلامية ممن أطلق عليهم مصطلح المجاهدين وقد زودتهم بالسلاح اللازم وساعدتهم بالتدريب والتمويل لكي يقوموا بمواجهة السوفييت حتى تم لهم النصر ، وخرج الآتحاد السوفيتي من البلاد .

لكن ماذا فعل هؤلاء المجاهدون بعد حروبهم في أفغانستان ؟ عاد كل منهم إلى بلده وهو مزود بتجربة عسكرية لا بأس بها ، وشحنة نفسية هائلة ، وتصميم على مواصلة الجهاد ضد بلده نفسها ! أما الذين بقوا في مواقعهم داخل أفغانستان فقد كون منهم أسامة بن لادن تنظيم القاعدة وعمل على ربطه بجميع الذين رحلوا . ومن الملاحظ أن أمريكا أوقفت دعمها لهم مما دفعهم إلى التحول لمعاداتها ، وانتهى بهم الأمر

إلى الهجوم المباشر عليها في أحداث سبتمبر 2001. التي أصبحت تاريخاً لقيام أمريكا بمحاربة الإرهاب (الإسلامي) في داخلها كما في كل أنحاء العالم .

في هذا الجو المشحون ، وحالة التخوف الدائم من ضربات إرهابية مجهولة ، أصبحت تقع في مناطق مختلفة من العالم — كرسّت الدول كلها وبدون استثناء نفسها لمحاربة الإرهاب ، وراحت وسائل الإعلام العالمية تتحدث أولاً عن (الإسلام السياسي) ثم (الإسلام المتشدد) وأخيراً (الإرهاب الإسلامي). ومن الحقائق المقررة أن العنف يولد العنف ، كما أن التعصب يستتبع التعصب ، وأخيراً فإن الذي يتسبب في نشأة ظاهرة سيئة يكتوى بنارها . وهذا ما حدث ويحدث الآن .

فالإرهاب لا يمارسه سوى أفراد أو جماعات قليلة جداً، ويمكن أن نتساءل : ألما يمكن معرفته وتحديدته ؟ ومن الذي يدعمه أو يحتضنه ؟ وما هي مصادر تمويله ؟ وكيف يحصل على أسلحته المتطورة ؟ وإذا كانت الجيوش النظامية عاجزة عن القضاء عليه ، فلماذا لا تقوم القوات الصاعقة المدربة جيداً بهذه المهمة ؟

وعلى الرغم من أن كل دول العالم أصبحت مشغولة بخطر الإرهاب ، فإن بعض هذه الأسئلة ، إن لم تكن كلها ، تظل بدون إجابات مقنعة . أما أمريكا فهي تتجه اليوم تحت ضغط الإرهاب إلى التخلي عن المبدأ الذي قامت دولتها عليه وهو التسامح، وتنجرف بقوة في طريق التعصب ، فتعلو بها الأصوات إلى طرد المهاجرين ومنهم المسلمون ، بل وتسعى لإقامة سور بينها وبين جارتها المكسيك ! وبالطبع يتمنى عقلاء العالم ألما تفعل هذا ولما ذلك .

أن التعصب بكل أنواعه لا يؤدي إلى خير ، بل إنه هو الذى يولد الغضب والاندزاء والمحقدين وحين يفيض به الكيل ينفجر فى كل جوانب المجتمع ، وقد يطال مجتمعات أخرى . ويؤكد تاريخ الحضارات كلها أنه ما من حضارة قامت واستمرت لعدة قرون إلا إذا كان التسامح هو شعارها وعدم التعصب هو السائد فيها . ومن المقرر أن أمريكا نفسها لم تنهض وتتقدم وتصبح أغنى وأقوى دولة فى العالم إلا بفضل مبدأ التسامح الذى انتهجته منذ قيامها وحتى الآن . لكن تلك النزعة الضيقة من التعصب الحالى هى أخطر ما يواجهها حاليا ، وقد يكون هو ذير انحدار مسيرتها الناجحة .

---